

أثر الصوت القرآني في تدبر القرآن الكريم

بقلم

محمد الصالح ستي (*) د / عبد الرحمان معاشي (**)



ملخص

تسعى هذه الورقة البحثية للكشف عن حقيقة الاستطاعة ومدى مراعاتها في التكليف الشرعي، إذ أنّ الشارع الحكيم راعى في أحكامه الشرعية مدى قدرة المكلفين على الأداء التكليفي وسعتهم وطاقاتهم على القيام بذلك، فكانت الاستطاعة مناط التكليف ومستند الأحكام الشرعية وأساس بناء القواعد الفقهية، وهذا يثبت أنّ الشريعة الإسلامية جاءت باليسر ورفع الحرج عن المكلفين ومراعاة أحوالهم وظروفهم القائمة على الاستطاعة والقدرة والإمكان، فلا تكليف بها لا يطاق.

الكلمات المفتاحية:

القرآن؛ التدبر؛ الصوت؛ الحروف؛ التكرار؛ الفاصلة.

مقدمة

الحمد لله رب الأرباب، مسبب الأسباب، منزل أعظم كتاب، هدى ونورا لأولي الألباب، والصلاة والسلام على النبي محمد وآله والأصحاب.
وبعد: فقد أيد الله تعالى خاتم أنبيائه بالمعجزة الخالدة والسراج المنير؛ كتاب عظيم ووحى مبين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، تحدى

(*) باحث في مرحلة الدكتوراه بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. taleb.se@gmail.com

(**) أستاذ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

تاريخ الإرسال: 2018/03/14 تاريخ القبول: 2018/06/28

• معهد العلوم الإسلامية جامعة الوادي •

به تعالى العرب في أعز ما يملكون، وأكثر ما به يتباهون؛ قوة البيان واتساع الخيال، وبراعة التنعيم والتطريب في الكلام، فاندعشت من نظمه عقولهم، وأبلى من بيانه نفوسهم؛ وتكملت من سحره أفواههم، لأنهم إنما سمعوا من خلاله ضرباً من الكلام لا قبل لهم به، ونوعاً من النظم والأنغام لا طاقة لهم عليها، فاخترق القرآن آذانهم، وتسلى إلى قلوبهم، وامتلك نفوسهم، فلم يجدوا بداً من أن يقرؤا بإعجازه، ويسجدوا لعظمته.

ففي القرآن إذن سر عظيم ونظم بديع، نابع من ذلك التناسق العجيب بين ألفاظه وأساليبه، والانسجام الكبير في حركاته وسكناته، وهذا ما يصطلح عليه بالصوت القرآني، وإذا ما وقع القرآن على لسان مرتل بارع وقارئ متقن، فإن حلاوته تزداد تأثيره يعظم، فيستثير العقل بفهم هذا الكلام الجليل، وتستطيب النفس بسماعه، ويخشع القلب لعظمته، وتنقاد الجوارح للعمل به، وهذا هو كمال تدبر القرآن الكريم، وعليه فهناك علاقة وطيدة وصلة وثيقة بين صوت القرآن الكريم وتحقيق تدبره، تدفعنا إلى طرح التساؤل الآتي:

ما أثر الصوت القرآني في تدبر كلام الله سبحانه وتعالى ؟

وسنحاول الإجابة على هذا التساؤل باتباع الخطة الآتية:

تمهيد: نعرف فيها كلا من التدبر والصوت القرآني.

المطلب الأول: الدلالة الصوتية لمخارج الحروف وصفاتها وأثرها في التدبر.

المطلب الثاني: التكرار الصوتي في القرآن الكريم وأثره في التدبر.

المطلب الثالث: الفاصلة القرآنية وأثرها في التدبر.

الخاتمة: نذكر فيها أهم نتائج البحث.

تمهيد:

سنخصص هذا التمهيد لتعريف كلا من التدبر والصوت القرآني

أولاً: تعريف التدبر**أ- التعريف اللغوي:**

- قال ابن فارس: "الدال والباء والراء أصل هذا الباب أنَّ جلَّه في قياس واحد، وهو آخر الشيء وخلفه خلاف قبله، والتدبير: أن يدبّر الإنسان أمره، وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبته وآخره".¹

- وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: "والتدبير نظرٌ في عواقب الأمور، ويقال استدبر فلان أمره ما لم يكن استقبل؛ أي نظر فيه مستديراً فعرف من عاقبته ما لم يعرف من صدره، ويقال تدبّر نظر في أدباره أي عواقبه".²

- وقال الزبيدي: "التدبر هو التفكير والتفهم في دبر الأمور".³ من خلال هذه التعاريف اللغوية يمكن القول أن كلمة التدبر في اللغة تدور حول ثلاثة معاني:

- 1- مؤخرة الشيء ونهايته.
- 2- النظر في عواقب الأمور.
- 3- التفكير والتفهم.

ب- التعريف الاصطلاحي

لا يكاد يُستعمل مصطلح التدبر إلا مضافاً إلى القرآن الكريم، حتى أصبح الذهن لا ينصرف إلا لهذا المركب الإضافي عند إطلاق مصطلح التدبر، وقد تعددت تعاريف العلماء لمصطلح التدبر، نذكر منها:

- عرفه الزمخشري: "تَدَبَّرَ الأمر: تأمَّله والنظر في إدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، وتدبر القرآن تأمل معانيه وتبصّر ما فيه".⁴

- وعرفه القرطبي: "التفكر فيه - يعني القرآن - وفي معانيه".⁵
 - أما الإمام أبو حيان فعرفه: "التفكر في الآيات، والتأمل الذي يُفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء".⁶
 من خلال هذه التعاريف يمكن تقديم تعريف جامع للتدبر وهو: "إطالة التفكير في معاني آيات القرآن، والنظر في عواقبها وما فيها من دقائق وأسرار خفية، واستخراج ما فيها من حكم وهدايات؛ ليخشع القلب ويتأثر، فتساق له الجوارح بالعمل والطاعة".

ثانياً: تعريف الصوت القرآني

الصوت لغة هو جنس لكل ما وقر في أذن السامع⁷، وينسب إلى الإنسان، وإلى مظاهر الطبيعة كالرعد والرياح والمياه، وإلى مختلف الحيوانات، إلا أن صوت الإنسان هو أكمل وأفهم الأصوات بما أكرمه الله تعالى من نعمتي النطق والعقل.
 والصوت البشري هو رنين الصوت الناشئ في الحنجرة والحجرات الصوتية المختلفة، والصادرة إرادياً من خلال الفم والأنف، إما على شكل مزيج أو سلسلة متصلة من الأصوات الكلامية الأولية؛ التي تستخدم بوضوح عند الكلام والتهيل والتهافت والإلقاء والترتيل ...⁸

أما نسبة الصوت إلى القرآن فهو من باب الاستعارة؛ حيث أن القرآن الكريم ليس بمخلوق ناطق يصدر أصواتاً؛ بل إن المقصود بالصوت القرآني هو ذلك الأثر الخاص الذي يتولد في أذن سامع القرآن؛ وإن لم يكن يفقه من لغة العرب شيئاً، فيشق صوت القرآن أذنه ويحترق قلبه ويفعل فيه العجائب، وليس هناك أبلغ وصفاً للصوت القرآني من قول الوليد بن المغيرة - على شركه وتكبره - لما سمع القرآن فقال قولته المشهورة: "والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله ..."⁹، فالصوت القرآني هو تلك الحلاوة التي تكتنفه والطلاوة التي تزينه، لما فيه من جمال في ألفاظه

أثر الصوت القرآني في تدبر القرآن الكريم محمد الصالح ستي، د. عبد الرحمان معاشي

وتراكيبه، وانسجام وتناسق في أساليبه، وائتلاف في حركاته وسكناته، وسمو في فواصله وغنّاته.

فالله تعالى هو الذي رتل هذا القرآن ونظمه، فجاء في أحسن حلة وأبهى صورة، قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَقُلْنَهُ تَزِيلًا﴾ (الفرقان 32)، فالصوت القرآني هو هذا الترتيل الرباني للقرآن، بما ضمّنه تعالى من نظم وتناسق، يخترق الآذان ويتسلل إلى القلوب، فيحصل الخشوع والتدبر.

والصوت القرآني يدور على محاور ثلاثة: مخارج الحروف وصفاتها، والتكرار في القرآن، والفاصلة القرآنية، ولكل محور من هذه المحاور أثره على القلب وعمله في النفس.

المطلب الأول

الدلالة الصوتية لمخارج الحروف وصفاتها وأثرها في التدبر

تعد معرفة مخارج الحروف وصفاتها من أهم فصول التلاوة، وأشرف أصول القراءة، ذلك أن الحروف أصل الكلام كله، وعليها مدار تأليفه، كما قال الإمام أبو عمر الداني: "اعلموا أن قطب التجويد وملاك التحقيق معرفة مخارج الحروف وصفاتها، التي بها ينفصل بعضها من بعض وإن اشتركا في المخرج"¹⁰، فالكلام لا يمكن أن يتضح مبناه أو يفهم معناه؛ إلا إذا كان المتكلم سليم المخارج سوي الصفات، والقرآن الكريم أشرف كلام وأحسن مقال، تكلم به الكبير المتعال، فلزم أن يُعتنى في تلاوته بإتقان المخارج والصفات حتى لا ينحرف عن حقيقته، ولا يفهم منه غير مراد قائله، ومن هنا كانت عناية علماء التجويد الفائقة بهذا الباب، فصدّروا به كتبهم ومنظوماتهم، وجعلوه قبة هذا العلم، وقطب الرحي التي تدور عليها جميع أحكامه.

وللإشارة فإن علماء النحو كالخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه (العين)، وسيبويه في كتابه (الكتاب)، وابن جني في كتابه (سر صناعة الإعراب)؛ قد سبقوا

علماء التجويد إلى دراسة الأصوات العربية، لكن دراستهم لها كانت محدودة فيما يتناسب والموضوعات التي كانوا يعالجونها، فالخليل إنما ذكرها لتوضيح منهجه في ترتيب معجمه، وسيبويه إنما ذكرها لتوضيح ما يجوز فيه الإدغام وما لا يجوز فيه، وابن جنّي ذكرها لحاجته إليه من الناحية الصرفية، إلا أن علماء التجويد كانت دراستهم لأصوات الحروف أشمل وأدق، وارتبطت أساساً بمعالجة ما سمّوه باللحن الخفي، فقد قسّموا اللحن إلى قسمين هما: اللحن الجليّ: وهو الخطأ الظاهر في الحركات خاصة وقالوا بأنه ميدان عمل النحاة والصرفيين، واللحن الخفيّ: وهو الخلل الذي يطرأ على الأصوات من جراء عدم توفيتها حقوقها من المخارج أو الصفات أو ما يطرأ لها من الأحكام عند تركيبها في الكلام المنطوق، وقالوا هذا ميدان علماء التجويد.¹¹

وسوف ندرس الدلالة الصوتية للحروف العربية من خلال دراستها مفردة؛ حيث أنه لكل حرف مخرجا وصفات يتميز بها عن غيره، ثم دراستها مركبة؛ فقد تنشأ بعض الصفات من جراء تركيب حرفين فأكثر، لننتهي إلى مسألة غاية في الأهمية ألا وهي الجرس الصوتي وإيقاعه المؤثر لبعض الألفاظ القرآنية؛ من خلال تحليل مخارج وصفات حروفها.

أولاً: الدراسة الصوتية للحروف المفردة

جرت عادة علماء التجويد على النظر إلى الصوت من ناحيتين؛ الأولى: النقطة التي يتكون فيها الصوت أو يخرج منها، وسموها (المخرج)، والثانية: الكيفية المصاحبة لتكوّن الصوت في مخرجه، وسموها (الصفة)، وغالبا ما يكون للصوت الواحد أكثر من صفة، بعضها يتعلق بطريقة مرور النفس في المخرج، وبعضها يتعلق بحالة الوترين الصوتيين عند النطق بالصوت، وغير ذلك.¹²

فلا يكفي معرفة مخرج الحرف لتحديد صوته وتمييزه عن غيره، بل يجب أن نردف

على ذلك معرفة كل صفاته؛ والتي هي الأساس في تمييز الحروف التي لها مخرج واحد، قال ابن الجزري: "كل حرف شارك غيره في المخرج فإنه لا يمتاز عنه إلا بالصفات، وكل حرف شارك غيره في الصفات فإنه لا يمتاز عنه إلا بالمخرج، ولولا ذلك لا تُلحَّد أصوات الحروف في السمع، فكانت كأصوات البهائم لا تدل على معنى، ولما تميَّزت ذواتها".¹³

وعليه فإن لكل حرف في العربية مخرجا وخمس صفات، ومنها ما يزيد بصفة أو صفتين، وسوف لن نذكر مخارج الحروف وصفاتها بالتفصيل، فهذا مبسوط في كتب التجويد، إلا أننا سنبرز أهمية معرفة المخارج والصفات في سلامة التلاوة وتدبرها؛ من خلال تقديم أمثلة عن بعض الحروف التي يمكن أن تنحرف عن مخرجها، أو تُعطى غير صفاتها، فيتغيَّر بذلك معنى الكلام، وينحرف عن مقصده، حيث أن الإخلال بالمخرج أو الصفة يمكن أن يؤدي إلى تغيير صوت الحرف، أو تحويله إلى حرف آخر، فيتغير معنى الكلمة أو تصبح من المهمل اللغوي الذي لا معنى له، فيؤثر ذلك على فهم وتدبر القرآن الكريم.

وقد عدَّ علماء التجويد هذا النوع من الإخلال من اللحن الخفي، وهو عندهم من الكراهة والقبح كلحن الإعراب الذي تتغير فيه الحركات وينقلب به المعاني، قال ابن مجاهد: "اللحن في القرآن لحنان: جليّ وخفيّ، فالجليّ لحن الإعراب، والخفيّ ترك إعطاء الحرف حقه من تجويد لفظه".¹⁴

واللحن الخفي في مخارج الحروف وصفاتها، باب واسع لا يمكن حصره في بحث كهذا، لكننا سنقتصر على ذكر بعض الأمثلة، منها:

1- حرف الحاء: يخرج من وسط الحلق، فإذا تقدم إلى أقصى الحلق تحول إلى حرف الهاء خاصة إذا كان ساكنا نحو: (فسبحه).

2- حرف الذال: إذا تأخر هذا الحرف عن مخرجه قليلا فإنه يتحول إلى حرف الدال

- أو الزاي، وإذا انخفض قليلاً عن مخرجه نتج بدلاً منه حرف التاء.
- 3- حرف العين: يخرج هذا الحرف من وسط الحلق، فإذا سكن وجاء بعده هاء فقد يتحول إلى حرف الحاء نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ (يس 60).
- 4- حرف الغين: يخرج من أدنى الحلق، فإذا أتى ساكنة وبعده شين متحركة قد يتحول إلى حرف الحاء نحو قوله تعالى: ﴿يَقْمَنَ مَلَائِكَةُ مِنْكُمْ﴾ (آل عمران 154)، فيتغير المعنى من الغشيان إلى الخشية.
- 5- حرف الثاء: إذا تحرك مخرج هذا الحرف إلى الأسفل قليلاً نتج عنه حرف التاء، وإذا تأخر إلى الخلف قليلاً نتج عنه حرف السين.
- 6- حرف الضاد: إذا تقدم مخرجه إلى رؤوس الثنايا تحول إلى حرف الطاء، وإذا انحرف إلى أصول الثنايا تحول إلى حرف الدال.
- 7- حرف القاف: يخرج من أقصى اللسان فوق، فإذا تحرك إلى الأسفل تحول إلى حرف الكاف.
- 8- حرف السين: يخرج من رأس اللسان ومن بين أصول الثنيتين، فإذا تأخر عن مخرجه إلى وسط اللسان خاصة إذا أتى ساكنة وبعده حرف الجيم فقد يتحول إلى شين، نحو (المسجد) تصير (المشجد).
- وقد يتحول إلى الطاء بسبب المجاورة نحو: (استطاعوا، المستقيم ...).
- 9- حرف اللام: يخرج من رأس حافة اللسان وما يحاذيه من اللثة، فإذا تقدمت قليلاً إلى رأس اللسان تحولت إلى نون، خاصة إذا جاءت ساكنة وبعدها نون متحركة فتدغم فيها، نحو (أرسلنا، جعلنا ...).
- 10- حرف الدال: يخرج من رأس اللسان مع أصول الثنية، فإذا تأخر إلى حافة اللسان فقد يتحول إلى ضاد، خاصة إذا جاء قبل أو بعد حرف مستعل نحو: (يصدر، تصديه ...)، وقد يتحول إلى زاي كذلك لاقتراب المخرج.¹⁵

ثانياً: الدراسة الصوتية للحروف المركبة

إضافة إلى أصوات الحروف مفردة، فإن لبعض الحروف في القرآن الكريم أصواتاً خاصة عند تركيبها، كالأصوات الناشئة عن تطبيق الإدغام والإخفاء والمد... وهذه الأصوات تعتبر نقطة الانعطاف أو مفترق الطرق؛ الذي منه يتميز علم التجويد عن علم اللغة، فعلم التجويد يختص بجملة من الأحكام والأصوات، تجعل ترتيل كلام الله تعالى يختلف عن قراءة غيره من كلام العرب.

بل إن هذه الأصوات والأحكام التجويدية هي التي أبهرت أدباء العرب وأرباب اللغة عند سماعهم لنظم القرآن وترنيمه ووقعه على النفس، ومن أهم هذه الأحكام: أحكام الإدغام العام، وأحكام النون والميم الساكنين والمشددين، وأحكام المد.

ثالثاً: أثر الجرس الصوتي لبعض الألفاظ القرآنية في التدبر

لقد عُني القرآن الكريم عناية بالغة بإذكاء حرارة الكلمة وتوهج العبارة؛ وذلك من خلال تناغم الحروف في التراكيب، واختيار الكلمات الموحية بالمعنى، فجاءت كل لفظة بمكانها المناسب لها، حيث أنه لا يمكن استبدالها بغيرها، وإن كانت تظهر أنها مرادفة لها.

ولعل من أهم الدراسات القرآنية الحديثة في القرآن وبلاغته؛ محاولة الربط بين مخارج الحروف وصفاتها في الكلمة والمعنى الذي تدل عليه، وأثر ذلك على النفس، " وكل كلمة من القرآن الكريم لها استقلالية خاصة تمنحها إياها حروفها المعينة، مما تكسبها صوتياً خاصية سمعية متفردة، تختلف عما سواها من الكلمات التي تؤدي المعنى نفسه، تلك الاستقلالية الصوتية التي نتحدث عنها تكون إما في الصدى المؤثر، وإما في البعد الصوتي الخاص، وإما بتكثيف المعنى بزيادة المبنى، وإما بإقبال العاطفة، وإما بزيادة التوقيع، فهي حيناً تصك السمع، وحيناً تهيب النفس، وحيناً تضفي صيغة التأثير فزعاً من شيء، أو توجهها لشيء أو طمعا في شيء وهكذا... "16.

وسنذكر بعض الأمثلة لألفاظ قرآنية لها دلالة صوتية موحية بمعناها:

أ- الألفاظ الدالة على الفزع

لقد وردت الألفاظ القرآنية الدالة على الفزع والشدة والهول بحروف شديدة مجهورة ذات أصوات مدوية صاخبة، تصك الأذان وتفزع القلوب وترعب الأبدان، فاستطاعت أصوات حروف تلك الألفاظ حقيقة أن ترسم صورة واقعية للحدث، ومن ذلك لفظة (يصطرخون): وردت في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ آلِذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (فاطر: 37).

أول ما يطرق أسماعنا ونحن نسمع هذه اللفظة صوت غليظ مخشج مختلط الأصداء، إنه صوت المنبذين والمغضوب عليهم في جهنم، فيُخِيلُ إليك وأنت تسمع اللفظة بجرسها الغليظ، غلظ الصراخ المختلط المنبعث من كل مكان، كما أن تنافر مخارج وصفات حروف هذه الكلمة يدل على مدى ازدحام أهل النار وتدافعهم، وارتفاع أصواتهم واختلاطها حتى لا يستطيع السامع تمييز بعضها عن بعض لكثرتها وغلبة الرعب عليها، فهي أصوات متنافرة تنافر الحروف التي تألفت منها اللفظة.

وقد اجتمعت في هذه اللفظة ثلاثة حروف استعلاء (الصاد، والطاء، والخاء) منها حرفين مطبقين، لتوحي بتعالى الأصوات باستمرار وزيادة، وإطباق الخوف والرعب والرغبة على الناس، وصوت الرء بما فيه من تكرار وارتجاج وتذبذب في الحركة، يوحي بتكرار الحدث وشدته.

وما قوله تعالى في الآية الكريمة (يصطرخ) بدلا من (يصرخ)؛ إلا لأن الأولى أقوى وأعنف وأدل على التعبير عن المعنى في التصادم الارتطام، وكما قيل الزيادة في المبنى دلالة على الزيادة في المعنى، أما لفظ (فيها) فجاء للتشديد ولتوكيد الحدث دون فصل أو تراخ؛ إذ لم يقل (وهم فيها يصطرخون) لكي لا يتوهم السامع بتراخي الحدث فتنفصم عراه.¹⁷

إذن نلمح من خلال هذا التحليل دلالة حروف هذه الكلمة بمخارجها وصفاتها على صورة العذاب الغليظ والشديد الذي يحل بأهل النار، أعادنا الله منها ومن عذابها.

ب- الألفاظ الدالة على البشارة والطمأنينة

على النقيض مما سبق نجد أن الألفاظ الدالة على البشارة والأمن للمؤمنين جاءت بحروفها سهلة لينة دالة على ما يلقاه المؤمنون من فرح وسكينة وهناء في جنة النعيم.

ومن ذلك لفظة (سلسيلا) في قوله تعالى: ﴿عَيْنَاهَا تُسَبِّحُ سَلْسِلًا﴾ (الإنسان 18).

حيث يوحي لفظ السلسيل بالسلاسة والسهولة والعدوبة، باختيار هذه الأصوات الرقيقة اللطيفة (السين، واللام، والباء)، وتكرار حرف السين وما فيه من صفيح وهمس، مما يزيد هذه اللفظة رقة ونعما، وبمشابهة هذه اللفظة لكلمة (سبيل)؛ التي تستعمل عادة في مسالك الخير والإنفاق والفلاح، وتدل على كون هذه العين في الجنة متاحة قريبة المتناول.¹⁸

المطلب الثاني

التكرار الصوتي في القرآن الكريم وأثره في التدبر

التكرار لغة: من الكر أو من التكرير وهي بمعنى الرجوع على الشيء وإعادته مرة بعد أخرى.¹⁹

أما اصطلاحاً: فهو عبارة على تكرير كلمة فأكثر باللفظ والمعنى.²⁰

وقد تعددت أوجه التكرار في القرآن الكريم؛ منها تكرار القصة القرآنية، تكرار الموضوع القرآني، تكرار الإيقاع الصوتي ...، وهذا الأخير هو الذي سيكون محل عناية في هذه الدراسة؛ حيث يُقصد بتكرار الإيقاع الصوتي في القرآن تكرار حرف أو كلمة أو آية أو أسلوب، وما لهذا من أثر بإظهار جمال النظم القرآني ونعمه السامي من جهة، ومن جهة أخرى الأثر على المعنى بإيقاظ العقول وتحريك القلوب وإلهاب

النفوس لفهم وتدبر كلام الرب تبارك وتعالى، وسوف نعالج هذه الفكرة من خلال التطرق إلى تكرار الحرف في الكلمة أو في كلمات متتالية، ثم تكرار الكلمة نفسها، إضافة إلى تكرار الآية والأسلوب القرآني، وسنقدم في كل نوع أنموذجا أو أكثر بما يتضح به المعنى، ويكون مقاسا لما يشبهه.

أولاً: تكرار الحرف

ونقصد به تكرار الحرف في الكلمة الواحدة أكثر من مرة؛ سواء كان في أولها أو وسطها أو آخرها، أو تكرار الحرف نفسه في عدة كلمات قرآنية متتالية.

النموذج الأول: قوله تعالى: ﴿فَكَبْكَبُوا فِيهَا وَمَ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء: 94).

نلاحظ في كلمة (ككبوا) كيف تكرر حرفي الكاف والباء، بما يوحى بتتابع وتكرار السقوط في جهنم من مكان إلى آخر بلا انتظام حتى يسقط بعضهم فوق بعض في قعر جهنم، فيخيّل إلينا التكرار في هذه اللفظة جرسا يمثل صوت الحركة التي تتم بها عملية الكبكة في النار.

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "الكبكة: تكرير الكب، جعل التكرير (في اللفظ) دليلا على التكرير في المعنى، وكأنه إذا ألقى في جهنم (ينكب) كبة مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها".²¹

وقال سيد قطب: "ككبوا.. وإننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدافعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام، وصوت الكركبة الناشئ من الكبكة، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف، فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه".²²

النموذج الثاني: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ذُحِّجَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: 185).

انظر إلى كلمة (ذحج) كيف تكرر فيها حرفي الزاي والحاء، فكان هذا التكرار تعبيرا بليغا ورسميا دقيقا لصورة تكرر فعل الذحجة، والتي تستعمل في دفع أو جذب الشيء الثقيل حتى تحركه قليلا قليلا، فكأن حجم الذنب يجعله ثقيلًا في ميزان الله

النموذج الثالث: قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَايَ الْخَنَاسِ ۖ﴾ (الَّذِي يُؤَسُّوْهُ فِي صُدُورِ
الْأَنَاسِ) ﴿ (سورة الناس 4-5).

ثانياً: تكرار الكلمة القرآنية

النموذج الأول: قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (الفجر 21).

• معهد العلوم الإسلامية جامعة الوادي •

إن جرس كلمة (دك) المكررة بحروفها وأصواتها، تكاد ترسم صورة حسية ومشهدا مرثيا لقدرة الله تعالى في إطباق الأرض بعضها على بعض، وتوالي الضغط والدك عليها، حتى تنفنى ولا يبقى منها شيء.²⁴

النموذج الثاني: ﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ (القارعة 1-3)

القارعة اسم من أسماء يوم القيامة والقارعة الشدة، سميت بذلك لأنها الساعة التي يقرع قلوب الناس هولها، وعظيم ما ينزل بهم من البلاء عندها.²⁵

وإذا ما تأملنا في الحروف المؤلفة لهذه الكلمة وهي القاف الممدودة ثم العين والتاء المربوطة، فنجد أن كل حرف يرسم صورة من صور الهول يوم القيامة، فحرف القاف القوي الشديد الانفجاري، دلالة على وقع هذا اليوم الشديد على الناس وما يكونون عليه من فزع وخوف، والمد له دلالة على امتداد أصواتهم بالصراخ والعيول لهول ما يلقونه، ثم حرف الراء المكرر دلالة على تكرار النفخات يوم القيامة؛ الأولى للفناء والثانية للبعث والثالثة للحشر، وحرف العين المجهور الذي ينحبس فيه النفس دلالة على انحباس الأنفس وشخص الأَبْصَار لهول ما يحدث، ثم حرف التاء المهموس دلالة على الهمس والتخافت الذي يكون بين الخلائق في ذلك المقام، قال تعالى: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه 108).²⁶

إذن فكلمة القارعة بأصوات حروفها المتناوبة بين الشدة والتكرار والجهر والهمس شكلت إيقاعا صوتيا قويا، يقرع الأذان ويفزع القلوب من شدة وهول ذلك اليوم، ثم إن تكرار الكلمة ثلاث مرات متتالية زاد الصوت قوة والمعنى توكيدا والموقف هولاً.

ثالثا: تكرار الآية القرآنية

إذا ما تحدثنا عن تكرار آية قرآنية أكثر من مرة في السورة الواحدة، تحضرنا مباشرة سورة رائعة، تسمى بعروس القرآن لما فيها من زينة وجمال؛ ألا وهي سورة الرحمن. فقد تكررت آية: ﴿فَإِنِّي إِلَـهٌ إِلَـهٌ لَّيْسَ بِكُلِّ كَافٍ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ

مرة، وإيقاع صوتها يتنوع بتنوع السياق، ويتميز التكرار في سورة الرحمان في أن جله يأتي عقب آية قصيرة لها إيقاع خاص يخاطب الروح والعقل، يسودها تارة التخويف والتهديد كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ (الرحمن 31)، وتارة يسودها نبرة الدعوة إلى التأمل والتفكير نحو: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن 26-27)، وتسودها تارة نبرة التحدي نحو: ﴿يَمَعُشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ اسْمَعُوا بَعْثًا أَلْفَوْا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْهَضُوا لَا تَسْقُطُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن 33)، ونبرة البشارة نحو: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (الرحمن 46)، إضافة إلى هذا الإيقاع الصوتي المتميز، فقد زاد أسلوب الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ آيَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الأمر تأثيراً، لما في هذا الأسلوب من دعوة صريحة إلى إعمال العقل وتحريك الفؤاد للتفكير والتدبر في نعم الله تعالى وآلائه، التي لا تُعد ولا تُحصى.

رابعاً: تكرار الأسلوب القرآني

يتنوع الأسلوب القرآني بين الإخبار والإنشاء في نسق بديع ونظم مائع، ويتكرر الأسلوب في القرآن بنفس الأداة وعلى نفس السياق، ليرسم بذلك صورة إيقاعية جميلة تستعذبها الأذن ويتنبه بها القلب والعقل، وعادة ما يتكرر أسلوب الاستفهام؛ لما له من أثر في إذكاء للعقل وإثارة للنفس في التفكير والتدبر. ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٨٨) ﴿أَسْمِعْ أَصْفَافَهُمْ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٨٩)، فتأمل في هذا الأسلوب الاستفهامي المتكرر أربعة مرات، والمركب من كلمتي استفهام (أفرايتم، أنتم)، فلفظ (أفرايتم) دعوة بيّنة إلى التبصر والتأمل في هذا الآيات العظيمة؛ من خلق العباد، وإنبات الزرع، وإنزال الماء، وإيقاد النار، ولم يكتفي بهذا الاستفهام الأول، رغم أنه يؤدي المعنى ويبلغ المراد، بل أردف عليه استفهاماً ثانياً فيه من التحدي وإظهار عجز الكفار ما لا يخفى على أحد، بتوجيه السؤال إليهم في كل

مرة (أنتم) تفعلونه، فزاد المعنى إيضاحاً والأسلوب بلاغة والصوت إيقاعاً وتأثيراً. وبنفس السياق ورد تكرار أسلوب الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتٍ بِهِجَرَهُ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ١٦﴾ أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا سَوَاحِلَ رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٧﴾ أَمْ يُحِبُّ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ١٨﴾ أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ تَشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعْلَمُ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩﴾ أَمْ يَبْدُوُا أَنْ يَخْلُقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٠﴾ (النمل 60-64).

فتأمل في تكرار أسلوب الاستفهام بكلمتي (أَمْ، أَلَيْه)؛ ففي الاستفهام الأول بكلمة (أَمْ) دعوة إلى التدبر في خلق السماء وما فيها، والأرض وما يجري عليها، والكون ومن يسيّره، وفي الاستفهام الثاني بكلمة (أَلَيْه) استنكار وتوبيخ لمن يجعلون مع الله إله آخر، وقد قدم لهم الله تعالى كل هذه البراهين والآيات الدالة على أنه الخالق الأحد.

المطلب الثالث

الفاصلة القرآنية وأثرها في التدبر

لقد حظي موضوع الفاصلة القرآنية باهتمام كبير عند المتقدمين من علماء اللغة والبيان، لكن المتتبع لجهودهم في هذا الباب يرى أن اهتمامهم يكاد يقتصر على دراسة الفاصلة من الناحية اللغوية البلاغية، ومحاولة ربط الفاصلة بالسياق الدلالي للآية ربطاً معجمياً دلالياً، وقد أفضى هذا الربط إلى نتيجة مفادها وجود تناسب بين الفاصلة والآية من حيث المعنى والمقام.

إلا أن دراسة الفاصلة القرآنية من الناحية الصوتية، ورصد شبكة العلاقات الصوتية بين الفواصل المتتابعة، وعلاقة ذلك كله بالدلالة المعنوية والسياقية للآية،

أثر الصوت القرآني في تدبر القرآن الكريم محمد الصالح ستي، د. عبد الرحمان معاشي

يعد من قبيل الدراسات الحديثة التي لازالت تحتاج إلى كثير من البسط والإسهاب؛ حتى تتضح معالمها وتستبين عُراها، وتظهر قدرة الرب عز وجل في نظم هذا الكتاب العظيم الذي لا تفنى عجائبه.

وسوف نحاول أن نجلي هذه الفكرة من خلال التطرق إلى تعريف الفاصلة القرآنية، ثم نذكر أهم أنواع الفاصلة القرآنية من الناحية الصوتية، لننتهي إلى توضيح العلاقة بين الدلالة الصوتية للفاصلة والدلالة المعنوية والسياقية للآية، وهو ما يظهر أثر الفاصلة في فهم وتدبر القرآن الكريم.

أولاً: تعريف الفاصلة القرآنية

1- تعريف الفاصلة القرآنية لغة واصطلاحاً

لغة: الفاصلة من الفصل وهو بون ما بين الشيئين، أو الحاجز بين الشيئين²⁷.
اصطلاحاً: عرفها الإمام الزركشي بقوله: "الفاصلة هي آخر كلمة في الآية كقافية الشعر وقرينة السجع، وقال القاضي أبو بكر الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني. وفرق الإمام أبو عمرو الداني بين الفواصل ورؤوس الآي قال: أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل عما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس أي وغيرها، وكل رأس أي فاصلة، وليست كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين وتجمع الضربين".²⁸ ويعتبر الخليل الفراهيدي هو أول من استعمل مصطلح الفواصل في أواخر آيات القرآن الكريم.²⁹

ثانياً: أنواع الفاصلة القرآنية من حيث الدلالة الصوتية

سبق الإشارة إلى أن دراسات علماء اللغة لموضوع الفاصلة القرآنية قد انصبت على الجانب البلاغي فيها، وعلاقته بالمعنى والسياق، ولذا فقد كان تقسيمهم لأنواع الفواصل القرآنية مبنيًا على هذا الأصل، فأخذت الفاصلة بذلك عدة صور؛ من تقديم، وتأخير، وحذف، وإبدال... كل ذلك بحسب ما يقتضيه السياق.

لكن ما يعنينا في هذا البحث هو تمييز الفواصل القرآنية ومعرفة أنواعها من حيث الإيقاع الصوتي، خاصة ما تعلق بالحرف الأخير في الفاصلة، وهذا ما يهم فنّ الترتيل والتجويد، وبهذا الصدد نميز بين نوعين للفاصلة القرآنية: النسق الصوتي العنقودي، النسق الصوتي التماثلي.

النوع الأول: النسق الصوتي العنقودي:

وهو نسق للفاصلة القرآنية يجمع بين أصوات مختلفة في نوعها، لكنها متفقة في خصائصها الصوتية، بمعنى أن الفاصلة القرآنية تتألف من مجموعة من الأحرف المختلفة المخارج، المشتركة في صفة أو أكثر، واصطلاح عليه النسق العنقودي تشبيهاً بعنقود العنب الذي يتألف من حبات متشابهة لكنها مختلفة في الحجم واللون والشكل.³⁰

ولهذا النسق الصوتي في الفواصل القرآنية عدة نماذج نذكر منها:

1 - النسق المستعلي المطبق: وهو تتابع عدة حروف ذات صوت مستعل مطبق ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ﴾ (١٨) لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوْثُ قَنُوطٌ ﴿١٩﴾ وَلَكِنْ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَرَةٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَافِقًا إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنِ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ (فصلت 48-50)، فقد جمعت الفاصلة في هذه الآيات بين حروف الإطباق الأربعة الصاد والضاد والطاء والظاء وما تتميز به من استعلاء وقوة.

2- نسق الجهر: وهو تتابع عدد من الأصوات المجهورة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفَتُنبِئُنَا بِدُعَائِنَا فَاعْرِفْنَا بِدُعَائِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَزُومُوا فَلِلَّهِ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ (غافر 11-14).

أثر الصوت القرآني في تدبر القرآن الكريم محمد الصالح ستي، د. عبد الرحمان معاشي

فقد تألفت الفاصلة في هذه الآيات من أربعة أحرف (اللام، والراء، والباء، والنون) وكلها حروف جهر، ولا تقتصر شبكة العلاقة الصوتية على هذا فقط، بل إن بينها علاقات صوتية أخرى تزيد من التلاحم في النسق الصوتي، فبين (اللام والراء) علاقة صوتية تبادلية نوّه إليها أبو حيان الأندلسي بقوله: "وأما الراء فمنحرفة من مخرج النون إلى اللام لمزية دمجها في ظهر اللسان عند الكلام، ولقرب مخرجها يبدل بعضها من بعض".³¹

وعلى هذا فإن اللام والراء من الحروف التي يجري عليها إدغام المتقاربين، كما أن بين النون واللام إدغام كامل في أحكام النون الساكنة، وما كان لهذه العلاقات الصوتية المتبادلة أن تتحقق لولا التقارب المخرجي والتماثل في الملامح الصوتية.

3- نسق الهمس: وهو تتابع عدد من الأصوات المهموسة، كما في قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا ۖ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ يَوْمَ يَبْعَثُ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ﴾ (طه 106-108).

جمعت الفاصلة بين ثلاثة أصوات مهموسة (الفاء والتاء والسين).

4- نسق الغنة: وهو تتابع صوتي الغنة (النون والميم) في الفاصلة، وهو أكثر الفواصل في القرآن، لأن العرب مالت في سجعها وقوافيها إلى استعمال حروف المد مع حرفي الغنة النون والميم، قال سيبويه: "إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركونه إذا لم يترنموا، وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع".³²

ولا يخفى تقارب المخرج بين الميم والنون فالأول شفوي والثاني من طرف اللسان، كما أنها يتشابهان في صفات الجهر والانفتاح والإذلاق، فبين الحرفين تناغم كبير وعلاقات صوتية متعددة.

5- نسق الأصوات المائعة: وهو تتابع أصوات النون والميم واللام والراء، ويظهر

ذلك مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣١) **اللَّهُ تَوَرَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ** فيها مصباحُ الصَّباحِ في تَجَلُّهِ الرَّجَاهَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تَوَرَّ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) في يُونُسَ إِذْنُ اللَّهِ أَن تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) بِحَالٍ لَا تَلِيهِمْ حِجْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِلَافِهِ الصَّلَاةَ وَإِنَّهُمْ لَازِكُونَ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿ (النور 34-36).

ويجمع علماء الأصوات واللغويون أصوات النون والميم واللام والراء في حزمة صوتية واحدة، ويطلقون عليها الأصوات المائعة الرنانة أو أشباه الحركات؛ لأنها قريبة من الحركات من حيث الوضوح الصوتي والجهري، فأصوات الفواصل الأربعة تتفق في صفة الجهر. ³³

7- نسق القلقلة: وهو تتابع عدة أصوات مقلقلة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾ (١) **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** (٢) **وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ** (٣) **وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ** (٤) **وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** (٥) ﴿ (سورة الفلق).

فقد جمعت الفاصلة بين ثلاثة أحرف من أحرف القلقلة (القاف، والباء، والdal)، وما تتميز به من صوت انفجاري شديد شكلت بذلك نسقا صوتيا قويا ومؤثرا.

النوع الثاني: النسق الصوتي التماثلي

يعد هذا النسق من أبرز الأنساق الصوتية في القرآن الكريم؛ ويعني اتفاق كلمات الفواصل المتتابعة في الصوت الأخير، ويكثر هذا النوع في قصار السور أو ما يعرف بالمفصل، وله عدة أوجه أهمها: ³⁴

1- الاتفاق في جميع الأصوات للكلمة التي تنتهي بها الآية: بمعنى تتكرر ذات الكلمة في نهاية كل آية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) **مَلِكِ النَّاسِ** (٢) **إِلَهُ النَّاسِ** (٣) **مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ** (٤) **الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ** (٥) **الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** (٦) ﴿ (سورة الناس).

أثر الصوت القرآني في تدبر القرآن الكريم محمد الصالح ستي، د. عبد الرحمان معاشي

- 2- الاختلاف في صوت واحد: كما في قوله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ (العلق 1-2)، فكلمتي (خلق، وعلق) تختلفان في صوت واحد وهو الحاء والعين وكلاهما من حروف الحلق، أي بينهما تقارب كبير في المخرج.
- 3- الاختلاف في صوتين فأكثر: كما في قوله تعالى: ﴿ مَنَّكَيْتِ فِيهِ أَبَدًا ۝٢﴾ (النجم 2) ومُنْذَرُ اللَّيْلِ قَالُوا أُنْغِذْ أَلَلَّهُ وَلَكُنَا ۝٣﴾ (الكهف 3-4)، فكلمتي (أبدًا، ولدا) تختلفان في حرفين ، وقوله تعالى كذلك: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ (البقرة 4-5)، فكلمتي (يؤمنون، والمفلحون) لا تتفقان إلا في الفاصلة وهو حرف النون.

ثالثاً: العلاقة بين الدلالة الصوتية للفاصلة والسياق المعنوي

يختار القرآن الكريم الفاصلة القرآنية بدقة متناهية جداً، تدل على إعجاز بياني مبهر، ودلالة صوتية عجيبة الإيحاء، فمن الناحية المعنوية تتوافق الفاصلة القرآنية مع مضمون الآية، كما ثبت عن ذلك الأعرابي الذي سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ رَكَّبْنَاهُ مِنْ بَدْرِ مَا جَاءَ نَكْمُ الْبَيْتِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٥﴾ (البقرة: 209) فقرأ (أن الله غفور رحيم)، ولم يكن يحفظ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه³⁵، وقد برع علماء البلاغة قديماً وحديثاً في استنباط لمسات بيانية ونكت لغوية في تناسق الفواصل والسياق المعنوي، ما تحار منه العقول وتعجب منه الأفتدة.

أما من الناحية الدلالية الصوتية عن السياق المعنوي فإن العقل يزداد حيرة والفؤاد يزداد تعجباً في أثر الإيقاع الصوتي للفاصلة القرآنية في إيصال المعنى المراد من الآية، سواء من جهة توافق المنظومة الصوتية لمجموعة من الآيات مع سياقها الموضوعي، أو من جهة الدلالة الصوتية للحروف التي تتكون منها الفاصلة في كل آية.

1- توافق المنظومة الصوتية لمجموعة من الآيات مع سياقها الموضوعي:

من مباحث علم التفسير الموضوعي ما يُصطلح عليه بالوحدة الموضوعية؛ والتي تعني وجود موضوع واحد تدور عليه كل السور، أو أن السورة تحتوي مواضيع عدة، كل باقية من الآيات لها موضوع معين، ولا ينفي هذا وجود علاقة ورابط بين هذه الموضوعات.

ويامعان النظر وإطالة التأمل في كتاب الله تعالى تجد أن هناك علاقة وطيدة بين السياق الموضوعي للآيات والفواصل القرآنية التي تنتهي بها، وكيف أن الفاصلة تتغير من موضوع إلى آخر، ما يزيد هذا الموضوع تناسقا وانسجاما ويقدمه في باقة صوتية متناغمة، تجلي المعنى وتوضح المقصود.

والنماذج القرآنية على ذلك كثيرة، وسنقتصر على بعضها:

النموذج الأول: سورة القيامة

تستهل سورة القيامة بقسم الله تعالى وجوابه وما يتصل به، ويستغرق ذلك ست آيات بفاصلة واحدة هي الهاء المسبوقة بالميم أو النون وهي: " القيامة، اللوامة، عظامه، بنانه، أمامه، القيامة "، ثم يتغير الموضوع إلى الحديث عن بعض أهوال يوم القيامة جوابا على سؤال من كذّب بهذا اليوم، فتتغير الفاصلة تبعا لذلك إلى حرف الراء المسبوق بمتحرك في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْا بُرَحَانَ السَّمَاءِ﴾ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّعْبُ وَالْقَمَرُ (٩)، ويتوالى الإيقاع بالفاصلة نفسها حتى الآية الثالثة عشر، حيث يتغير الموضوع إلى التحدث عن الإنسان وبعض أحواله، فتتغير الفاصلة تبعا لذلك إلى حرف الهاء في قوله: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١٠) وما بعدها حتى الآية التاسعة عشر، ثم يبدأ موضوع آخر بفاصلة أخرى على وزن (فاعلة) في ست آيات متتالية: (العاجلة، الآخرة، ناضرة، ناضرة، باسرة، فاقرة)، حتى إذا بدأ موضوع جديد يتحدث عن تصوير حالة الموت تحولت الفاصلة إلى حرف القاف المقلقل المدوّي في خمس آيات متتالية (التراق،

راق، الفراق، الساق، المساق)، ثم تبدأ فاصلة جديدة بموضوع جديد إلى آخر السورة وهي فاصلة الألف المقصورة.

فتأمل كيف أن الفاصلة في هذه السورة كان لها أثر بالغ وإيقاع ظاهر في تجلية المواضيع الهامة التي دارت عليها هذه السورة؛ بحيث شكلت هذه الفواصل بتناسقها وانسجامها منظومة صوتية رائعة تستعذبها الأذن، وتشق طريقها إلى سويداء القلب.

النموذج الثاني: سورة المدثر

تبدأ هذه السورة بثناء الله تعالى لرسوله ﷺ وإسداء بعض الأوامر والنواهي إليه في الآيات (1-7)، فنجد أن الفاصلة في هذه الآيات جاءت بالراء قبلها متحرك مع تقارب في الوزن: (المدثر، أنذر، كبر، طهر، فهجر، تستكثر، فصب)، ثم يتغير الموضوع عن بعض أحوال الآخرة، فيتغير إيقاع الفاصلة تبعاً لذلك إلى راء مسبقة بمد في ثلاث آيات متتالية: (النافور، عسير، يسير)، فإذا انتهى هذا الموضوع بدأ آخر فيه ألوان من التهديد والوعيد للمكذبين بفاصلة أخرى وهي الدال المنونة في سبع آيات متتالية: (وحيداً، ممدوداً، شهوداً، تمهيداً، أزيد، عنيداً، صعوداً). ولا يخفى أثر الفاصلة في توضيح معاني هذه المواضيع، ورسم لوحة فنية وصوتية بديعة.

2- الدلالة الصوتية للحروف المكونة للفاصلة

سبق وأن أشرنا إلى العلاقة الصوتية لمخارج الحروف وصفاتها بمعنى الكلمة التي تتألف منها، وعلى نفس السياق التحليلي سنلاحظ أثر الدلالة الصوتية للحروف التي تتكون منها الفاصلة في معنى الآية التي تنتهي بها، وسنقدم نموذجاً عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَّتِ صَبِيحًا ۝١ فَالْمُورِيَّتِ قَدَحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَتِ صَبِيحًا ۝٣ فَأَنْزَلَ بِرَبِّهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾ (العاديات 1-5).

يمكن بيان شبكة العلاقات الصوتية الدلالية بين صوتي الحاء والعين والسياق الدلالي على النحو الآتي:

أ- التوافق بين صوت الحاء وأصوات الخيول أثناء سيرها المختلفة:

جاء صوت الحاء في نهاية فاصلة الآيات الثلاث الأولى، والحاء صوت احتكاكي مهموس يتناسب مع السياق الدلالي على النحو الآتي:

- الفاصلة الأولى: (ضبحا) والضبح أو الضباح هو صوت الخيل إذا جرت أو

أسرعت وهو صوت ليس بصهيل أو حمحمة إنما هو صوت أنفاسها.³⁶

وللخيل ثلاثة أصوات الصهيل عندما تكون واقفة، والحمحمة إذا أرادت

صاحبها، والضباح وهو صوت أنفاسها إذا كانت تجري أو تركض.³⁷

وقد أفاد قوله تعالى: ﴿وَالْمَدِيدِ ضَبْعًا﴾ هذا المعنى، لربط صوت الضبح بعدو

الخيول. أما من الناحية الدلالية الصوتية للفاصلة "فقد أدى صوت الحاء وظيفتين

دلالية وإيقاعية، فقد ذكر ابن عباس أن الخيل إذا عادت قالت أح، أح³⁸، وهو

صوت يتماثل مع نطق صوت الحاء إذا ما أردنا التعرف على مخرجه الدقيق، كما أن

الهمس في الحاء وهو جريان النفس عند النطق بها يتناسب مع الأنفاس التي تلتقطها

الخيول في الجري وهي تقول أح أح .

- الفاصلة الثانية: (قدحا) يتجلى التناسب بين صوت الحاء الاحتكاكي ودلالة

القدح في قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾، فالنار أو الشر الذي يتطاير بفعل احتكاك أو

قدح حوافر الخيل بالحجارة يتناسب مع الملمح الاحتكاكي لصوت الحاء؛ إذ أن

صوت الحاء يتم إنتاجه بسبب احتكاك الهواء بالحلقة حينما يتم تضيق مجرى الهواء،

كذلك شرر النار ينتج عن احتكاك الحوافر بالحجارة.³⁹

ب- التوافق بين صوت العين وأجواء الحرب:

صور الإيقاع الأول لصوت الحاء الاحتكاكي المهموس صوت الخيل ومسيرتها إلى

الحرب، أما الإيقاع الثاني لصوت العين الاحتكاكي المجهور في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ بِهِ

نَقْعًا ۖ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ فقد صور صوت الخيل في ساحة المعركة، إذ في هذه الساحة

تختلط أصوات الخيل بأصوات السيوف والمحاربين ويكثر الصياح، وتعلو أصوات المحاربين ويثور الغبار وتشتد الوغى، وكل هذه الأصوات تنسجم مع صوت العين الاحتكاكي المجهور، إذ أن العين ذات قيمة تعبيرية واضحة في تصوير الحركات والأصوات العنيفة.⁴⁰

ويعزز ما تقدم ذكره ما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَثَرَهُمْ فَتَكًا﴾، فالنقع قيل أنه الغبار، وقيل يراد به الصياح، أي فهيجن في المٌغار عليهم صياحا وجلبة.⁴¹

الخاتمة

يمكن أن نخلص في نهاية هذا البحث إلى النتائج الآتية:

أولاً: الصوت القرآني هو تلك الحلاوة التي تكتنف القرآن الكريم، والطلاوة التي تزينه، لما فيه من جمال في ألفاظه وتراكيبه، وانسجام وتناسق في أساليبه، وائتلاف في حركاته وسكناته، وسمو في فواصله وغنّاته، ويتضمن الصوت القرآني محاور ثلاثة: مخارج الحروف وصفاتها، التكرار القرآني، والفاصلة القرآنية.

ثانياً: التدبر هو إطالة التفكير في معاني آيات القرآن، والنظر في عواقبها وما فيها من دقائق وأسرار خفية، واستخراج ما فيها من حكم وهدايات؛ ليخشع القلب ويتأثر، فتنساق له الجوارح بالعمل والطاعة.

ثالثاً: يظهر أثر الصوت القرآني في التدبر من خلال النقاط الآتية:

1- مخارج الحروف وصفاتها وما لها من أثر هام في تركيب الكلام وتمييز بعضه عن بعض؛ بل إن انحراف الحرف عن مخرجه أو إعطائه غير صفاته قد يحوِّله إلى حرف آخر، فتختلف دلالة الكلام ويتغير معناه، كما أن لبعض الألفاظ القرآنية بما حوته من حروف أثرا بالغاً على القلب والنفس، فألفاظ الفزع تجد في حروفها جهراً وشدة وقلقلة تتناسب مع معناها، وألفاظ البشارة والتشويق تجد في حروفها لينا ويسراً وسهولة تتوافق مع مدلولها، وهذا من كمال إعجاز القرآن الكريم.

2- التكرار في القرآن والذي له عدة أنواع: فقد يتكرر الحرف في الكلمة أو في عدة كلمات متتالية، وقد تتكرر الكلمة أو الآية القرآنية، كما قد يتكرر الأسلوب القرآني، ولكل نوع من هذه الأنواع دور هام في توكيد المعاني وغرسها في النفوس، وكذا إبراز جمال النظم القرآني وإيقاعه الصوتي.

3- الفاصلة القرآنية والتي تعتبر من أهم ما ميّز القرآن الكريم عن غيره من كلام العرب، فرغم كون العرب أرباب الفصاحة والبيان؛ إلا أن القرآن الكريم بفواصله فاق أشعارهم بقوافيها ونثرهم بسجعه، ما حير عقولهم وكمّم أفواههم، فلم يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثله، وترسم الفواصل القرآنية بأنساقها المتنوعة لوحة صوتية جميلة بديعة، تستعذبها الأذن وتطيب بها النفس، كما أن الفواصل لا تنفك عن دلالة الآيات وسياقها المعنوي؛ بل إن دورها بارز في إظهار مواضيع القرآن ومقاصده المختلفة.

ـ الحواشي والإحالات:

- ¹: مقاييس اللغة، ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، 1979م، 324/2.
- ²: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: المهدي المخزومي وإبراهيم السمرائي، دار الهلال، القاهرة، 33/8.
- ³: تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى: 1422هـ/2001م، 266/11.
- ⁴: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مصدر سابق، 324/2.
- ⁵: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ت: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة: 2003م، 290/5.
- ⁶: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ، 153/9.
- ⁷: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مصدر سابق، مادة (ص و ت)، 318/3.
- ⁸: الدقائق المحكمات في المخارج والصفات، هشام عبد الباري محمد راجح، دار الإيمان، 2006م، ص 56.
- ⁹: أخرجه الحاكم في المستدرک في حديث طويل عن ابن عباس، باب تفسير سورة المدثر، حديث رقم (3872)، وقال: حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
- ¹⁰: التحديد في الإتيان والتجويد، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ت: غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى: 1421هـ/2000م، ص 102.
- ¹¹: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، مطبعة الخلود، بغداد، الطبعة الأولى:

أثر الصوت القرآني في تدبر القرآن الكريم محمد الصالح ستي، د. عبد الرحمان معاشي

- 1406/1986م، ص 50، بتصرف.
- ¹² : أبحاث في علوم التجويد، غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان، ط الأولى: 1422هـ/2002م، ص 79.
- ¹³ : النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ت: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، 214/1.
- ¹⁴ : التحديد في الإتقان والتجويد، أبو عمرو الداني، مصدر سابق، ص 116.
- ¹⁵ : ينظر: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، ت: أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان، الطبعة الثالثة: 1417هـ/1996م، ص 143 وما بعدها.
- ¹⁶ : أثر الصوت في توجيه الدلالة، ساجدة عبد الكريم، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد 3، آذار 2010 م، العراق، ص 301.
- ¹⁷ : ينظر: المرجع السابق، ص 301-303.
- ¹⁸ : المرجع السابق، ص 09.
- ¹⁹ : ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إساعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1407هـ/1987م، 804/2.
- ²⁰ : أنوار الربيع في أنواع البديع، علي صدر الدين ابن معصوم المدني، ت: شاكرا هادي شكر، مطبعة النعمان، العراق، طبعة: 1969م، 345/1.
- ²¹ : الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1407هـ، 253/3.
- ²² : في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة السابع عشر، 1412 هـ، 2605/5.
- ²³ : التنعيم في القرآن الكريم، سناء حميد البياتي، مرجع سابق، ص 13.
- ²⁴ : ينظر المرجع السابق، ص 15.
- ²⁵ : جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ / 2000م، 573/24.
- ²⁶ : أثر الصوت في توجيه الدلالة، ساجدة عبد الكريم، مرجع سابق، ص 297، بتصرف.
- ²⁷ : لسان العرب، جما الدين بن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414 هـ، 521/11.
- ²⁸ : البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1376 هـ/1957، 54-53/1.
- ²⁹ : ينظر: فواصل الآيات القرآنية، كمال الدين عبد الغني المرسي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م، ص 10.
- ³⁰ : ينظر: الأسلوبية الصوتية في الفواصل القرآنية، عمر عبد الهادي عتيق، مجلة المنارة، جامعة آل البيت، العراق، المجلد 16، العدد 3، ص 5.
- ³¹ : تذكرة النحاة، أبو حيان الأندلسي، ت: عفيف عبد الرحمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م، ص 25.
- ³² : الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مصدر سابق، 355/3.

- ³³: الأسلوبية الصوتية في الفواصل القرآنية، عمر عبد الهادي عتيق، مرجع سابق، ص 7.
- ³⁴: ينظر: المرجع نفسه، ص 8-9.
- ³⁵: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مصدر سابق، 3/347.
- ³⁶: الصحاح، الجوهري، مصدر سابق، 1/385.
- ³⁷: ينظر: الكشف، الزمخشري، مصدر سابق، 4/786.
- ³⁸: جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري، مصدر سابق، 24/575.
- ³⁹: الأسلوبية الصوتية في الفواصل القرآنية، عمر عبد الهادي عتيق، مرجع سابق، ص 19.
- ⁴⁰: ينظر: من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، محمد السيد سليمان العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المجلد 9، العدد 36، سنة 1989م، ص 79.
- ⁴¹: الكشف، الزمخشري، مصدر سابق، 4/487.

The effect of Quranic sound in pondering the Quran

Mohammed salah setti & Dr. Abderrahmane maachi

taleb.se@gmail.com

El- Emir abd el kader University

Abstract:

The Qur'anic sound is the sweetness and splendor that adorns the Holy Quran, because of the beauty in its words and structures, and harmony and consistency in its methods and movements, penetrates the ears of its listeners, and reaches to the serenity of his heart, and the heart lies to his greatness, and guided and driven to work, and this is the perfection of the Quran.

The Qur'anic sound includes three axes: the first is the exits of the letters and their descriptions for their significance on the meaning of the speech, and the second is the Qur'anic repetition, which has an effect on the affirmation of the meanings, highlighting the beauty of the Qur'anic systems, and the third of the Quranic pauses (verses), which it draws from exquisite sound paintings The ear is sweetly attracted by listening to it, and the soul got it pleasure. And its role in the showing the topics of the Quran and its various purposes.

Keywords:

Quran; Pondering; Letters ; repetition; pauses.

أثر الصوت القرآني في تدبر القرآن الكريم محمد الصالح ستي، د. عبد الرحمان معاشي